الانسان البار والفاجر



الدكتور عبدالله بن عبدالقادر بلفقيه العلوي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى « والعصر إنّ الإنسان لفي خُسر إلا الذيـن آمنوا وعملوا الصالحاتِ وتَواصَوا با لحق وتَواصَوا بالصبر » صدق الله العظيم .

هذه سورة من سور القرآن الكريم . وهي سورة قصيرة في لفظها كبيرة في معناها ، لأنها صورت الانسان بصورة حقة عندما يتكيف لك بغرائزه التي جبل عليها والتي خلقت معه ، فإنه عندما يبرز في هذا الوجود بهذه الصفات التي تحمله على الانتقام وحب الجاه والرغبة في الاستعلاء وما الى ذلك من وسائل البطش بالناس والفتك بعباد الله تعالى والاستهتار بشؤون الخلق والسير وراء الشهوات كل ذلك يـدعو الى الخسران ويجعلـه في خسر مدى الحيـاة ، ولا يجـد له في الآخرة نصيرا . وبذلك يكون قد خسر الدنيا والآخرة ، وتعساً لإنسان هذه حياته وتلك غايته ، وأن حديث الله تعالى عن الإنسان الخاسر صادق فيه ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟ غير أن الجاحدين والكافرين والمنكرين يحتاجون إلى ما

يؤ كدالحادث، لذلك أقسم الله تعالى لهم بقوله «والعصر» والمراد به وقت صلاة العصر التي خصها الله تعالى بمزيد الفضل في قوله جل شأنه : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » - الآية ٢٣٨ البقرة - وان هذا الوقت مخلوق لله تعالى، ومخلوقات الله تعالى لها تفاوت في قدرها وخطرها ليست كلها في مستوى واحد ، فالله سبحانه تعالى عندما يقسم بشيء من مخلوقاته فإنه يلفت نظرنا إلى ما لها من فضل عند الله تعالى وما لها من فوائد في هذا الوجود . فوقت صلاة العصر له منزلة عند الله تعالى ، لأن صلاة العصر تؤدى فيه ، وهي صلاة فاضلة تكسب فاعلها فضلاً ممتازاً ، وكذلك أقسم الله تعالى بالشمس لما فيها من فوائد لايقادر قدرها للناس كافة ، فهي جليلة الخطر عظيمة الأثر في هذا الوجود ، وهكذا كل شيء يقسم الله تعالى به ، فله قدره وله خطره .

قال الإمام الآلوسي في تفسيره «روح المعاني» في الجزء الثامن والعشرين : قال مقاتل : أقسم سبحانه بصلاة العصر لأنها الصلاة الوسطى عند الجمهور لقوله عليه الصلاة والسلام (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر» ولما في مصحف حفصة رضي الله عنها والصلاة الوسطى صلاة العصر ، وفي حديث « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» (١) . وروي أن امرأة كانت تصيح في سكة المدينة « دلوني على رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم » فرآها عليه الصلاة والسلام فسألها : ماذا حدث ؟ فقالت : يا رسول الله إن زوجي غاب فزنيت فجاءني ولد من الزنا فألقيت الولد في دن خل فمات ، ثم بعتُ ذلك الخل ، فهل لي من توبة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أما الزنا فعليك الرجم بسببه وأما القتل فجزاؤه جهنم ، وأما بيع الخل فقد ارتكبت كبيراً ، لكن ظننت أنك تركت صلاة العصر »

ذكر ذلك الإمام وهو لعمري إمام في نقل مثل ذلك مما لا يعول عليه عند أئمة الحديث ، فإياك والاقتداء به ، وخصت بالفضل لأن التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم. وقيل أقسم عز وجل بوقت تلك الصلاة لفضيلة صلاته او لخلق آدم ابي البشر

---

(١) رواه الأربعة عن ابن عمر رضي الله عنه .

عليه السلام فيه يوم الجمعة، وإلى هذا ذهب قتادة، فقد روي عنه أنه قال: العصر العشي، أقسم سبحانه به كما أقسم بالضحى لما فيهما من دلائل القدرة، وقال الزجاج: العصر اليوم والعصر الليلة، عليه قول حميد بن ثور:

ولم يلبث العصران يو م وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

وقيل العصر بكرة والعصر عشية وهما الأبردان، وعليه وعلى ما قبله يكون القسم بواحد من الأمرين غير معين، وقيل: المراد به عصر النبوة وكأنه عُني به وقت حياته عليه الصلاة والسلام وما بعده إلى يوم القيامة ومقداره فيما مضى من الزمان مقدار وقت العصر من النهار ويؤذن بذلك ما رواه البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس».

وقال ابن عباس: هو الدهر، أقسم عز وجل به لاشتماله على أصناف العجائب، ولذا قيل له أبو العجب، وكأنه تعالى يذكر بالقسم به ما فيه من النعم وأضدادها لتنبيه الإنسان المستعد للخسران والسعادة، ويعرض عز وجل لما في الإقسام به من التعظيم ينفي أن يكون له خسران أو دخل فيه كما يزعمه من يضيف الحوادث إليه، وفي إضافة الخسران بعد ذلك للإنسان إشعار بأنه صفة له لا للزمان كما قيل:

يعيبون الزمان وليس فيه معايب غير أهل للزمان

وتعقب بأن استعمال العصر بذلك غير ظاهر. قال شيخ المفسرين ابن جرير في الجزء الثامن ص ١٨٧: و الصواب من القول في ذلك أن يقال أن ربنا أقسم بالعصر، والعصر اسم للدهر، وهو العشي والليل والنهار، ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى، فكل ما لزمه هذا الاسم فداخل فيما أقسم به جل ثناؤه، وقوله: «إن الإنسان لفي خسر» يقول: إن ابن آدم لفي هلكة ونقصان وكان الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقرأ ذلك ان الانسان لفي خسر وأنه فيه إلى آخر الدهر. وبعد الحكم من الله تعالى على الإنسان بأنه في خسر وضلال وبهتان وفسوق وطغيان وما إلى ذلك مما يندرج تحت الخسران

أراد الله تعالى رفقاً بالإنسان ان يبين له سبل النجاة وطرق الخلاص من هذا الخسران المبين وبسلوك هذه السبل والسير في تلك الطرق وتكون السعادة الأبدية والهناءة في الدنيا والآخرة . هذه الطرق التي رسمها الله تعالى للإنسان الضال ، وتلك السبل التي بينها له ترجع في جملتها إلى الإيمان والعمل الصالح ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر . والايمان ما وقر في النفس واستقر في القلب لا تحركه العواطف ، ولا تزعزعه الشدائد ولا يتسرب إلى النفس ريب فيه ، ولا ينفذ إلى القلب شك ، في هذا الإيمان الصادق قال الله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون» (الآية ١٥ سورة الحجرات) ، وقد سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره » وتركيزه في النفوس هي التي شغلت الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مدة إقامته بمكة وجعلته يستعذب العذاب. في هذا السبيل ، العمل الصالح هو فعل ما أمر الله تعالى به واجتناب ما نهى الله تعالى عنه والسير على نهج الدين والقيام بتنفيذه بجسمه وروحه . وإننا عند الرجوع إلى القرآن الكريم نجد العمل الصالح يذكر مع الإيمان أحياناً بعده وتارة قبله « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن » (الآية ٩٧ النحل) ومهمة العمل الصالح قد تولى بيانها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأثناء إقامته بالمدينة ، فإن التشريع فيها أحسن البيان في كل شيء والتواصي بالحق هو العمل على توصيل النفع لعباد الله تعالى ، لأن الإيمان والعمل الصالح فيهما نجاة الإنسان بنفسه ، ولكن التواصي بالحق فيه نفع للغير ، والحق هو كل مايرضي الله تعالى. والتواصي بالصبر فيه إيصال النفع إلى الغير أيضاً وهو احتمال المشاق وحبس النفس على الرضا عند الشدائد ، وأفرد بالذكر مع اندراجه في التواصي بالحق للاعتناء بشأنه أو أن التواصي بالحق فيه مركز العبادة التي ترضي الله تعالى ، والتواصي بالصبر فيه مركز العبودية التي هي الرضا بفعل الله سبحانه ، فهناك فارق بين الاثنين الأول طاعة والثاني رضى بما قسم الله ، فإذا آمن الإنسان وعمل صالحاً ، ووقف عند ذلك كان متأثراً بالنفع وحده ، ولكن ما هكذا يكون الإنسان ، بل الإنسان الكامل هو الذي يتفانى في خدمة الجماعة ويؤثر غيره على نفسه ويقوم بواجب النصح نحو العباد ، ولايدخر في ذلك وسعاً ويسعى جهده في سبيل الصالح العام ، ذلك هو مايدعو إليه الإسلام ويحض عليه الدين ؛ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم :

« لايكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه »، رواه أحمد في المسند والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أنس رضي الله عنه. والحب يكون لله تعالى ولوجه المصلحة العامة فلا يكون لغاية نفسية أو شهوة خاصة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه ممّا سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار » متفق عليه.

فذلك شأن الإنسان الكامل الذي ينفع نفسه وينفع الناس، وتعساً لمن يعمل في الحياة لنفسه فقط فالإنسان الذي هذا شأنه وهذا حاله فهو منبوذ من الله ومنبوذ من الناس وأي إنسان يمكنه أن يتخذ قسطه من الحياة كاملاً غير منقوص وهو في عزلة من الله تعالى ومن خلق الله والإنسان يكمل بالإنسان وهو مدني بطبعه. فهذه السورة الكريمة أعطتك صورة واضحة عن الإنسان الفاجر الذي خسر الدنيا والآخرة وأعطتك صورة عن الإنسان البار، ربح الدنيا والآخرة. وقد صدق الإمام الشافعي عند ما قال: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم، لما فيها من النصح الغالي. كان رجلان من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ثم يسلم أحدهما على الآخر ليذكر كل واحد صاحبه بما يجب أن يكون عليه، وبعد هذا فالله جل ثناؤه يقول « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » (الآية ١٠٤ سورة الانعام).

الناس . . والحق

إن الناس إذا لم يجمعهم الحق شعبهم الباطل، وإذا لم توحـدهم عبادة الرحمـن فرقتهم عبادة الشيطان، وإذا لم يستهوهم نعـيم الآخرة، تخاصموا على متاع الدنيا.